الكتاب العشرون

كتاب التفكير فريضة إسلامية

تأليف: عباس محمود العقاد

تحليل وعرض أ.د. السيد أحمد فرج

أولا: التعريف بمؤلف الكتاب:

هو عباس محمود العقاد المولود بمدينة أسوان بأقصى صعيد مصر من أب ترجع أصوله إلى أسرة كانت تتاجر في العقادة بمدينة المحلة الكبرى، وأم تنحدر من أصول كردية في سنة ١٤٠٣هـ / ١٨٨٩م، وتوفى بالقاهرة في سنة ١٣٨٣هـ / ١٢مارس ١٩٦٤م ولكنه دفن بأسوان بحسب وصيته.

لم يكتب العقاد سيرته الذاتية في كتاب مستقل، ولكن الباحث عنها لا يخطئ أن يجدها منثورة في كتبه خاصة: «أنا»، و«حياة قلم»، و«رجال عرفتهم» ، و«في بيتي»، و«ساعات بين الكتب»، و«عالم السدود والقيود»، و«سارة»، وكتاباته عن مي زيادة وصالونها الأدبي، ودواوين شعره خاصة الخمسة الأخيرة منها: «وحي الأربعين»، و«هدية الكروان»، و«عابر سبيل»، و«أعاصير مغرب». وقد صدرت في المدة من سنة ١٩٣٣ - ١٩٥٠م وهى ناطقة بتفصيلات عن علاقته بالمرأة التي لم يفصح عنها.

كان أبوه موظفًا صغيرًا بمدينة أسوان، وكان رجلًا متدينًا متعبدًا لا يتكاسل أبدًا عن أداء فرض من فروض دينه، مات وكان عباس في صباه، في عمر الحلم والتطلع إلى المستقبل الذي يوده الصبي الحالم فتعهدته أمه، وكانت امرأة متدينة متعبدة تتصف بالصلاح والتقوى، والحزم في المسالك واتخاذ القرار، وكانت هذه صفات موروثة ورثتها عن أصلها الكردي. وزادها صلابة موت العائل وقلة الزاد. فكانت دائمًا مضطرة للاقتصاد في الإنفاق، والانطواء والعزلة، والقسوة في معاملة

الأبناء، وقد ورث عنها العقاد أغلب هذه الصفات إن لم تكن كلها.

التحق العقاد بمدرسة أسوان الابتدائية، فنال إجازتها في سنة ١٩٠٣م، وفي هذه المدرسة كانت أولى المؤثرات فيه من قِبَل مدرسي اللغة العربية والتاريخ، وبسبب زيارة للشيخ محمد عبده للمدرسة فقد أطلع مدرس اللغة العربية الشيخ محمد عبده على كراسة التعبير للعقاد فأعجب بها وتنبأ له بمستقبل عظيم في مجال الكتابة، وبسبب هذا الإعجاب صار الشيخ محمد عبده مثله الأعلى، منذ ذلك اليوم حتى آخر أيام عمره.

كانت طفولة العقاد معبأة بالآمال والأمنيات، فقد حلم بأن يكون جنديًا يحرر البلاد من الاحتلال الإنجليزي، كما رجا أن يتفوق في علوم الزراعة والحيوان ليغنى المجتمع الفقير الذي نشأ به.

وتميز العقاد وهو لا يزال في سن صغيرة عن سائر أقرانه – بأنه كان نهما في القراءة في شتى الكتب باللغة العربية، وباللغة الإنجليزية التي كانت كتبها موفورة في أسوان من متروكات السياح الأوربيين الذين كانوا يأتون إليها في فصل الشتاء. وتلك هي العادة التي اكتسبها العقاد عندما استوطن القاهرة، فقد كان يحرص على القراءة كما كان يحرص على أن يقضى شهرًا بأسوان من كل عام يتقوى به على برد الشتاء.

وفي سنة ١٩٠٤م وكان الفتى في الخامسة عشرة من عمره وفد إلى القاهرة، وكان وافدًا زادُه الغربة والوحدة، فلم يكن يعرف أحدًا، ولا مسلكًا من مسالك الحياة، ولولا أن طرده الحاجة والأمل في النجاة من فقره بأسوان ما تركها، فقد كانت أحب بقاع الأرض إلى قلبه.

وفي القاهرة بدأ ينظر إلى مشاهير رجال العصر من أمثال عبد الله النديم والشيخ محمد عبده، واستقر في نفسه الإعجاب بمحمد عبده ووقاره. وتمنى لو صار كاتبًا مشهورًا مثله» : قال: «منذ فهمت شيئًا يُسمى المستقبل لم أعرف لي أملا

في الحياة غير صناعة القلم.. ولم أتصور صناعة القلم إلا في صناعة الصحافة وظل العقاد حتى آخر حياته يعتز بمهنته «كاتبًا صحافيًا».

ولكن العقاد - في القاهرة سنة ١٩٠٤م وجد كل الطرق وعرة، وكل المسالك مسدودة، وأخيرًا وجد عملًا يغنيه من جوع بوظيفة كاتب بالقسم المالي بمديرية الشرقية براتب شهري خمسة جنيهات، فسكن بمدينة الزقازيق، ولكنه كان يذهب إلى القاهرة من حين لآخر لكي يشاهد مسرح الشيخ سلامة حجازي، ولكي يشترى بعض الكتب القديمة من حي الأزهر.

وكان أول ضوء ينكشف له وظيفة محرر بصحيفة الدستور سنة ١٩٠٩م التي كان يصدرها محمد فريد وجدي، الذي كان منتميًا للحزب الوطني، على شرط ألا يكون ملتزمًا بحب الحزب الوطني، أو داعية لزعيمه مصطفى كامل إذ إن العقاد كان متحمسًا للديمقراطية الليبرالية التي يروج لها سعد زغلول، تلميذ محمد عبده مبغضًا لفكرة الجامعة الإسلامية التي كان يروج لها مصطفى كامل.

ومع رضا العقاد بهذا العمل وموضوعية محمد فريد، إلا أن مقدمات اشتعال الحرب العالمية الأولى وما تبعها من ضائقة مالية وعجز الصحف عن استمرار الصدور وانتشار البطالة جعل العقاد يعود إلى مسقط رأسه أسوان. وهناك عكف على قراءة كل ما وقعت عليه عيناه من كتب الفلسفة المادية، خاصة مذهب النشوء والارتقاء الذي كان له أكبر تأثير في مكونات عقله، بل كانت شديدة التأثير في كتاباته، ولا تستثنى كتاباته الإسلامية من هذا التأثير.

وفي أسوان ألف أول كتبه «خلاصة اليومية» في سنة ١٩١٢ الذي تولد من فكرة اليأس الذي يعيشه، وأرسل به إلى صديق لكي ينشره بالقاهرة، فلقى الكتاب نجاحًا لم يكن العقاد يتوقعه، فأحيا في نفسه الأمل وعاد إلى القاهرة في السنة نفسها، فألحقه الأديب محمد المويلحى الذي كان يعمل مديرًا بديوان الأوقاف بقلم

السكرتارية، واستمر في هذا العمل إلى سنة ١٩١٤م، وكان في نفس الوقت يكاتب بعض الصحف مثل صحيفة «المؤيد» ومجلة «البيان» ولم تطارده الرقابة على الصحف بل سعى الإنجليز إلى ضمه إلى «جوقة» المتعاونين معهم ضد سياسة الخديوي وعينوه رقيبًا على الصحف. ولم يستمر في هذا العمل طويلًا، لأنه لم يوافق طبيعة العقاد المتمردة. ولما اشتعلت الحرب العالمية الأولى عاد إلى أسوان ليعمل ناظرًا لمدرسة أهلية ثم تركها وعاد إلى القاهرة، وعمل بالتدريس في عدة مدارس أهلية، وفي هذه الآونة تعرف على المازني وعبد الرحمن شكري، ولقد جمعهم العمل بالتدريس وتوافقهم على ضرورة التجديد في الأدب، خاصة الشعر.

وشهدت سنة ١٩١٨م آخر عهده بمهنة التدريس، وبعد مغالبة لوظائف صغيرة غير مستقرة بمديريات (محافظات): أسوان وقنا والشرقية والفيوم - والتدريس في مدارس ابتدائية بأسوان والقاهرة، تفرغ العقاد للسياسة والصحافة، والكتابة في الأدب ونقده حتى آخر يوم في حياته.

فبعد ثورة ١٩١٩ وبعث دستور سنة ١٩٢٣م وتطبيق سعد زغلول النظام الديمقراطي رأى العقاد في نفسه جزءًا من هذا النظام، فساهم في الثورة، وشارك في كتابة منشورات (جماعة اليد السوداء السرية) ودافع عن سياسة سعد زغلول وأفكاره، ولقبه بالكاتب الجبار

وفي ظل حكومة الوفد بزعامة سعد حظي العقاد بعضوية مجلس النواب عن حزب الوفد ابتداء من سنة ١٩٢٦ وفي سنة ١٩٣٠م أشيع أن الملك فؤاد سيقيل الوزارة ويعطل الدستور، فوقف العقاد بالمجلس وقال قولته المشهورة: «إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلد يخون الدستور ولا يصونه» (د. شوقي ضيف: كتاب معي ص ٩٣، ٩٧) فحكم عليه بالسجن تسعة أشهر (من ٣١ / ٩ / ١٩٣٠ إلى ٨ / ٧ / ١٩٣١م) ولما قضى سجنه ذهب إلى ضريح سعد زغلول وأنشد قصيدة

منها:

وكنت جنين السجن تسعة أشهر عداتي فها أنا في ساحة الخلد أولد

وصحبي لا اختـــلاف عليهما سيعهد فـــي كل ما كان يعهد

وفي سنة ١٩٣٢ حدث تحول سياسي كبير في حياة العقاد، فقد أيد النحاس زعيم الوفد سياسة توفيق نسيم، لأنه كان يرى أنها حكومة انتقالية يتولى بعدها الوفد حكم البلاد، ولكن العقاد رفض هذا التصرف من النحاس فترك العقاد الحزب، ومن أول يوم ترك فيه الحزب صار عدو حزب الوفد الأول، بعد أن كان كاتبه الأول. وبعد خمس سنوات انشق عن الوفد بعض رجاله الكبار مثل أحمد ماهر والنقراشي وإبراهيم عبد الهادي، وكَوَّنوا حزب الهيئة السعدية، وقد تولوا جميعًا رئاسة وزارات كانت موالية للإنجليز، ومع ذلك انضم إليهم العقاد، ودافع عن سياستهم، وسياسة الإنجليز ضد سياسة الألمان.

كان العقاد منذ أن خرج من سجنه قد أخذ على عاتقه كما كان يؤكد دائما أن يحارب الحكم الاستبدادي، وكان يرى مثاله في مصر في حكم إسماعيل صدقي، ومثاله في الغرب (هتلر) وفي كل حكم شمولي بصفة عامة مثل: الشيوعية والفاشية والنازية، وكان يوازن بين الحكومات الديمقراطية، والحكومات الشمولية فيقول: «البيئة الديمقراطية كالأرض الآمنة القريرة، والبيئة الدكتاتورية كالمحجر الصحي الذي لا يعاش فيه بغير رقابة وتضييق»[(١)].

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية سَخَّر قلمه في مقاومة هتلر، وعرفت الاستخبارات الألمانية ذلك ومن ثم لما جاءت القوات الألمانية إلى أرض العلمين بمصر وظن أنهم سينتصرون فر إلى الجنوب، ولم يعد إلا بعد هزيمة الألمان على

(١) العقاد: هتلر في الميزان ص ١٩١، القاهرة سنة ١٩٤٠م.

أرض الكنانة في العلمين، ونهاية الحرب العالمية الثانية.

وكما كافح النازية، كافح الشيوعية التي كان يراها شرًا أكثر من شر الاستعمار لأن الشيوعية بحسب قوله «استعمار وشر يضاف لشر الاستعمار، لأنها تفقد ضحاياها القدرة على المقاومة»(١).

وزار العقاد فلسطين في سنة ١٩٤٥ وكانت في أخطر أحوالها وأشرها، ولكنه لم يكتب شيئًا جادًا يخدم القضية مثله مثل نخب المفكرين المصريين كطه حسين، وأحمد لطفي السيد وغيرهما. ولما قامت حركة ضباط الجيش المصري في يوليو ١٩٥٢م وقف منها موقفًا حياديًا، فلم يضادها ولم يؤيدها، وكان في الثالثة والستين من عمره، وهي سن لا يُعذر فيها إنسان من جانب الله، فأخذ العقاد يكتب في الإسلاميات يصالح ربه، ولسان حاله يقول: «عرفت الإيمان بعد تفكير طويل» وظل على هذه الحال مع التزامه بالكتابة أسبوعيًا لصحيفة الأخبار، وحضور جلسات مجمع اللغة العربية الأسبوعية، إلى أن توفى في ١٢ من مارس سنة ١٩٦٤م بعد معاناة مرض كان يعاوده في الأمعاء الغليظة.

شخصية العقاد:

كان عباس العقاد طويل القامة، ذا وجه أبيض، يعلوه (طربوش) لم أره بدونه – قصير لكي لا يزيد من طول قامته. وعينين سوداوين واسعتين ثاقبتين، وتخفيان انفعالاته الغاضبة أحيانًا أو التي تشي عن سرور ورضا أحيانًا أخرى، فقد كان سريع الانفعال عالي الرضا والغضب، ولكنه كان حريصًا على ألا يظهر ضعفه في كل أحواله سواء كان معنويًا أو بدنيًا، مع جسده قد تعاورته الأسقام وتعهدته العلل التي نتجت عن معاناته المعيشية الأولى من سوء التغذية في أيام فقره، فقد تعرض لغزو السل إلى صدره وحساسية من البرد في حنجرته، وألم الأمعاء والكبد، الذي كان سببه

(١) العقاد: لا شيوعية ولا استعمار ص ٢٠٢ – ٢٠٣، كتاب الهلال سنة ١٩٥٧م.

كبت غيظه من الزمان، ومتقلبات الدهر الذي كان يتظاهر بتحديه فقال:

إيه يا دهر هات ما شئت وانظر ما عزمات الرجال كيف تكون

تعسفت في بلائك إلا هان بالصبر منك ما لا يهون

العقاد القارئ النهم، والمنشئ المبدع:

لا يكاد العقاد القارئ يختلف في إخلاصه للقراءة، عن العقاد المنشئ المبدع المخلص للكتابة، فكلاهما عنده معاناة وحرفة، ولا تقل حرفة القراءة عنده، عن حرفة الإنشاء، وهو في العمل في كل من الحرفتين مستعبد لنفسه لا يرحمها. قرأ كتب السابقين من علماء المسلمين في كل مجالات المعرفة. كما عكف على دواوين الشعر العربي، ولكن العقاد مثله كمثل كل أصحاب الحرف كان يفضل نوعًا من القراءة على نوع، وإن قرأهم جميعًا. الشيء نفسه يمكن تطبيقه في قراءاته باللغة الإنجليزية التي كان يتقنها ويجل الكاتبين بها. ولقد سهل العقاد على الباحثين المنقبين عما يستهويه في القراءة، فقال إنه «كان يفضل قراءة كتب فلسفة الدين والتاريخ الطبيعي (أصل الأنواع والنشوء والارتقاء) والتراجم والشعر، وأن المقياس الذي يقيس به جهده هو النهم إلى المعرفة، وأن يعطى الأدب والفن حقه، وبدءًا من ستينات عمره كان يؤكد على إيمانه بالله والقضاء والقدر، وأن قيمة العمل في بواعثه لا في غايته وأن أساس كل عمل النظام - وكان يؤكد ذلك بقوله: «غناك في نفسك، وقيمتك في عملك وإن بواعثك أحرى بالعناية من غاياتك، ولا تنتظر من الناس كثيرًا، والحياة مغالبة، فإما أن تكون جديرًا بأن تحياها أو تموت» [(١)].

لكن العقاد لم يقل كل شيء، بل أخفى أشياء منها: إعجابه الشديد بالفكر

(١) للاستزادة ارجع إلى ترجمة طاهر الطناحي للعقاد، مقدمة كتاب حياة قلم من ص ٧ إلى ٨، نشر دار الهلال سنة ١٩٦٤م وعلى شلش: سيرة العقاد المبعثرة - مجلة فصول، المجلد ٩، العدد ١، ٢، في أكتوبر ١٩٩٠، ص ٨٠ - ٨٤، وعبد الحي دياب: العقاد ناقدًا، ص ١٧٠ وما بعدها، مطبعة الشعب سنة ١٣٩٠م - ١٩٧٠ م.

الغربي والإنجليزي منه على وجه الخصوص، ولقد أثر فيه هذا الإعجاب تأثيرًا شديدًا خاصة في كتابة العبقريات، والدراسات الإنسانية، سواء كانت دينية أو اجتماعية، وكان تأثير توماس كارليل طاغيًا عليه في الاتجاه الأول بكتابة الأبطال. الذي عرف في الأوساط الثقافية المصرية منذ سنة ١٩٣٠ بترجمة محمد السباعي، أما الكاتب الإنجليزي الثاني الذي سحر العقاد، فقد كان هربرت سبنسر. قال العقاد كان يعقوب صنوع صاحب المقتطف يسمى بحوثي: «البحوث السبنسرية في الفلسفة والتقدم، وكان يصف حججي بأنها حجج سبنسرية Spencerian argument وطريقتي في الاستدلال بطريقة سبنسر في تحقيقاته» (١).

مسالك العقاد في الكتابة:

لو قيل: إن العقاد كانت تستعبده نفسه، وما يعتمل فيها وبواعثه لما ضل القائل الحقيقة. وعن هذه المقولة يستبين ما يدور فكر العقاد في فلكه سواء كان في فنون الشعر والأدب – والنقد، أو في الكتابة عن الشخصيات، أو فيما أطلق عليه العقاد: فلسفة الدين، وتاريخ الإنسانية.

أولا: في مجال الأدب شعرًا ونثرًا والشعر عنده مقدم على النثر ويفضله لأنه أكرم محتدًا منه. وأقدر على الاكتفاء بالفطرة

وفي مجال الأدب لا يفصل العقاد بين المبدع وفنه، ويرى أنه لابد أن تتوفر في المبدع: الفكرة ودلالات المعاني، قبل تحلية الصياغة، أي أن المعنى يقدم على المبنى – مع صدق النفس. وإن الذي دفعه إلى ذلك حال زمانه الذي كان يهتم المبدع فيه بأناقة اللفظ وصقل العبارة، ولهذا ذهب هذا المذهب، ليؤكد أن الشعر قيمة نفسية إنسانية لا قيمة لسانية فحسب» (٢). وكان يرى أن المعنى الجيد يتضمن الطبع

(١) العقاد: رجال عرفتهم ص ١٢٥ – الهلال سنة ١٩٦٣م.

(٢)محمد فتوح أحمد – قضية الشعر عند العقاد – مجلة فصول أكتوبر سنة ١٩٩٠، ص ٨٩ – ٩٠.

الحسن، الصدق، وشخصانية المبدع، وكل ذلك هو جوهر موضوع الإدراك والشعور عنده.

وكان العقاد متأثرا في ذلك بناقدين اشتهرا في حياته هما: «سانت بيف» و«تين» وكان الأول يركز على وجوب أن يكون للنقد غاية موضوعية تتصل بالعمل الأدبي، بمواجهة الإنسان المبدع نفسه.

وكان الثاني على يركز أهمية القوانين التي تتحكم في عملية الخلق الأدبي وهى: الجنس، والبيئة، والعصر، ويرى أنها ضرورة تلزم المبدع بقيمتها وقيمها.

ويضيف العقاد إلى ما قرره هذان الناقدان، كشوف فرويد في علم النفس، وتأثيرها في المبدع، ومن ثم في العمل الإبداعي.

وكان العقاد يطبق كل ذلك على أحب شعراء العربية إليه (ابن الرومي).

كما دعا إلى الوحدة العضوية للقصيدة في كتاب «الديوان» الذي ألفه مع المازني وهاجم فيه الشعراء المعاصرين من الجيل السابق له خاصة شوقي الذي توّجه أدباء العرب وشعراؤهم، أميرًا للشعر العربي – بحضور سعد زغلول سنة ١٩٢٦م.

ولم يكن العقاد محقًا في نقده – فالمسألة كانت شخصية بالدرجة الأولى، فقد كان العقاد يرى أنه أولى منه بإمارة الشعر العربي الحديث. وكانت هذه الرؤية من أكبر زلات العقاد، الذي لم يكن مطبوعًا في الشعر، كما هي الحال عند شوقي. ولقد تحدث عن هذه الرؤية العقادية لشعر شوقي عالم بالشعر وفنونه هو شوقي ضيف فقال: «إن هذه الرؤية تقوم على ما استقر في نفس العقاد من أن فكرة القصيدة العربية ووحدتها العضوية، كانت محور نقد العقاد، وهو نقد يرد لاختلاف المنهجين عند كل من شوقي والعقاد في تأليف القصيدة. فشوقي متبع للنقد القديم القائم

على وحدة البيت، مثل كل فحول الشعر العربي من قبله» [١].

ثانيا: العبقريات:

كانت دوافع العقاد لكتابة العبقريات دوافع شخصية نفسية تتصل اتصالًا مباشرًا بشخصية العقاد نفسه. فقد عاش العقاد أكثر من نصف عمره حياة قلقة عانى فيها من الفقر والترحال من جنوب مصر إلى شمالها، وكان يعاود الترحال كلما حزبه أمر، وعاش تقلبات السياسة، واضطرابات المجتمع المصري في ظل الاحتلال، وتحولاته الثقافية والفكرية، وظل يكافح كل ذلك، وهو يسبح ضد التيارات في كل المتغيرات والتحولات. مع ما كان يعانيه من أمراض فتاكة في الصدر والأمعاء والكبد، إلى أن صار شيئًا، وبعد أن عبر كل هذه العوائق الكأداء، والمسالك الوعرة، أي حتى أصبح عباس محمود العقاد ملء السمع والبصر بدأ يكتب العبقريات عن عباقرة تمثل فيهم نفسه، الذي يؤكد ذلك أن أول كتابات العقاد في العبقريات صدر في سنة ١٩٤٢م وكان العقاد في الثالثة والخمسين وكان قد صار من نخبة المشاهير في مصر، فأخذ يكتب عن العباقرة ليؤكد أنه جدير بأن يكون منهم، كان ذلك أهم دوافع العقاد في كتابة العبقريات، وهو ما فهمه طه حسين عندما علق على ما كتبه العقاد في أبى العلاء المعرى فقال: «إن العقاد أراد أن يعطينا صورة من أبى العلاء فأعطانا صورة من العقاد»[٢] كانت كل الشخصيات التي كتب العقاد عنها مرآة كان العقاد يحب أن يرى فيها نفسه. ومن ثم فقد جعل مركز البطولة فيها وبؤرة العبقرية إنسية، حتى وهو يكتب عن الأنبياء والصحابة. ولقد أراد أن يوجههم بحسب معطيات قوانين العبقرية الإنسية. فهم جميعًا بمعتقده

(١)شوقي ضيف: في النقد الأدبي ص ١٦٠، دار المعارف، الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٦م، وأيضا كتاب معي لشوقي ضيف، ص ٧٦، ٨٩، سلسلة اقرأ.

(٢) طه حسين: فصول في الأدب والنقد، ص ٢٤.

متصلون بحقيقة الكون، وباطن الحياة[١].

والعقاد في العبقريات مقلد ومجود، أما كونه مقلدًا فقد تولد ذلك من إعجابه بكتاب الأبطال لتوماس كارليل الذي ترجمه محمد السباعي في سنة ١٩٣٠ وكان كارليل يرى في البطولة: العروة الوثقى التي تعقد ما بين الرجل العظيم وسائر الناس، وكان من بين أبطال كارليل محمد ﷺ في صورة إنسان عظيم عبقري، لا في صورة نبي يوحى إليه، أما كونه مجودًا فلأنه استطاع أن يقف على ذروة عالية كتلك التي وقف عليها من انتفع بهم، وقبس منهم.

ويضاف إلى ما تقدم إيمان العقاد بأهمية الفرد العظيم، في دفع المجتمع الديمقراطي إلى التقدم خاصة أن العقاد -منذ أواخر ثلاثينات القرن العشرين - رأى أن المجتمعات الديمقراطية باتت مهددة بأخطار الشيوعية الماركسية اللينينية في روسيا، والفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا، فتمثل دور العباقرة في إنقاذ الشعوب من هذه المذاهب الهدامة. خاصة وقد كان يؤمن بقيم الفردية التي خطط لها، وطبقها على نفسه منذ سنة ١٩٢٢، وعبر عنها في كتاب «فصول» بقوله: «لابد أن يتمتع كل إنسان بثمرة تفوقه في المعارف أو المواهب العقلية على سواء».[٢].

ثالثا: إسلاميات العقاد وكتاب: التفكير فريضة إسلامية:

كانت إسلاميات العقاد من أهم كتاباته التي قربته من القراء. ولقد فصلنا بينها وبين المادة التي كتبت في التعريف بالعقاد لاتصالها المباشر بالكتاب المعين للدراسة.

وترتبط كتابات العقاد في الإسلاميات بأزمة العصر الذي عاش فيه وتعاطاه، فقد عاصر تحولات الفكر في مصر ابتداء من كتابات الشيخ محمد عبده الإصلاحية، وتحولات السياسة التي كان فاعلها الحقيقي - في نظر العقاد سعد زغلول، وكان

(١)شوقي ضيف: مع العقاد ص ٨٦ - ٨٨، دار المعارف - اقرأ.
(٢) العقاد: الفصول ص ١٦١.

يحب الرجلين ثم تيارات الاستنارة عند لطفي السيد، وتحرير المرأة الذي وضع أسسه محمد عبده ثم رفع رايته قاسم أمين. وكانت هذه التيارات تموج في الداخل، ثم كانت هناك تيارات أكثر عنفًا وصخبًا تهب على البلاد من الغرب مثل النظريات العلمية والفلسفية، والتاريخ الطبيعي - خاصة نظرية دارون في أصل الأنواع والنشوء والارتقاء.

وكانت من ثمار تيارات القرن التاسع عشر - الذي ولد العقاد في عقده قبل الأخير، الذي كان يُعرف بقرن الإلحاد الموجه من الثقافتين الألمانية والإنجليزية إذ أتت الثقافة الأولى بكتابات لودنيج فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢م) وكارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م)، وسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩ م) وأتت الثانية بتشارلز داروين صاحب نظرية أصل الأنواع والنشوء والارتقاء، وكانت سيطرة هذا الأخيرة قوية في العقاد كما كان تأثير علم النفس فيه مؤثرًا في كتاباته.

ولقد عمل هؤلاء على إسقاط فكرة الله، في رغبات بشرية، في شكل تأليه فكرة جماعية الدولة - كما هو الحال في الماركسية والاشتراكية القومية (النازية) - والفاشية - أو تأليه فكرة الفردية الليبرالية الرأسمالية، مضافًا إليها النزعة النفسية.

تركت هذه النزعات تأثيرًا قويًا في العقاد، سواء في تركيبته العقلية، أو في توجهاته الأخلاقية والسياسية والثقافية، وإنْ فُتن بدرجة عالية بالمدرسة الفردية الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية، وبالنزعات النفسية والفلسفة الوجودية، ولكن في مرحلة متأخرة وجد هذه التوجهات تصدم معتقدات متراكمة في أعماقه. فكان يحاول أن يأخذ جانب الأمان فيقف بجانبها، ويجعل من موروثه الديني، وفهمه للنصوص الدينية الإسلامية حائط صد يصد عنه تأثير هذه التيارات المؤثرة، فكان يتبجح، وإن ظلت بعض شوائبها عالقة في كل من عقله وقلبه، خاصة من تأثير نظرية دارون، وتحليلات فرويد النفسية.

اصطدم العقاد العنيد صاحب المزاج الناري بكل هذه التيارات والتحولات فتركت في نفسه تأثيرات مهمة أخذ العقاد يغالبها طويلا، ولم يقو على مواجهتها إلا بكتابة إسلامياته.

وإذا كان العقاد قد شهد أزمة الاعتقاد في هذا العصر من خلال هذه التيارات والتحولات، فقد أحس هو نفسه بأنه جزء منها لا ينفصل عنها ولا ينفك منها. وأنه أراد أن يخلص مجتمعه المسلم منها، كما وجد في الكتابة خلاصه هو نفسه، ربما يفسر ذلك أن كتاباته الإسلامية كانت فيما بعد الخمسين من عمره، إذ إنه لم يكتبها إلا بعد أن أتاه الإيمان اليقيني في هذا الوقت من رحلة حياة اعتورها شك، وهو إيمان في رأيه يعلو على الإيمان الذي ورثه من أبويه اللذين لم يفرطا في فرض من فروض الدين طول حياتهما، كما كان يحلو له أن يفتخر بهما كلما تذكرهما فينبئ به محدثه.

والعقاد بكتاباته الإسلامية يحاول أن ينقى العصر من أزمته العقدية والفكرية، وفي الوقت نفسه يدفع عن نفسه كل العلائق غير الإيمانية بعد أن انتهى إلى حتمية إيمان الإنسان بالله والقضاء والقدر، خاصة إنسان القرن العشرين الذي عاش العقاد ثلثيه، وليس إنسان القرن الثامن عشر وإنسان القرن التاسع عشر. ولقد غالى العقاد في هذا التصور، عندما جزم بأن الإنسان المسلم هو الجدير بأن يكون إنسان القرن العشرين. (العقاد: القرن العشرون ما كان وما سيكون) لأن من رأيه أن حقائق الوحي والإيمان تستمد يقينها من واردات العقل وهى أعظم ما تكون في العقل المسلم الذي عرف صاحبه أن كتابه العزيز القرآن بين له أهمية معطيات العقل من وجوب التفكير، وحق الإرادة والاختيار، وتدبير الأمور وإحكامها، مع البحث الكوني وقراءة ما في الكون، إلى آخر المعطيات العقلية، كما بينها القرآن الكريم، ولهذا فإن إسلامياته تعد إسهامًا حقيقيًا في تنوير الأذهان، وتثقيف العقول بزاد

فكرى يعبد الطريق أمام العقل ليأخذ مكانه اللائق في مسيرة الحياة[١].

والعقاد يبنى أبحاثه في كتاباته الإسلامية على صحيح النقل، ومدرك العقل، ليحفظ لكل من النقل والعقل حقه من التفكير الصحيح الذي يؤدى إلى تقدم الأمة الإسلامية، ومواجهة الصورة التي شوهها الفكر المادي الذي تعاطاه العقاد في شبابه سواء القادم من الغرب، أو من نتاج من لف لفيفه من مفكري الشرق من أمثال شبلي شميل وفرح أنطوان وغيرهما. وكان العقاد فيما قدمه في هذا المجال قوى الحجة العقلية واضحها، مع قوة المنطق ووضوحه، واستنارة الخطاب وموضوعيته.

وكتاب: التفكير فريضة إسلامية من أهم ما كتب العقاد في إسلامياته، بل يعد أهمها لأنه انتشر بين الناس وكان تأثيره فيهم أقوى من غيره من مؤلفات العقاد نفسه في الباب نفسه. ولعله اكتسب هذه الميزة من عنوانه التي دلت على ذكاء المؤلف.

والكتاب مرتبط بمعتقد العقاد. وهو أن في الإسلام الحل العقابي الذي لو عمل به المسلم لنجا في دنياه ودينه. فالقرآن الكريم يبين للمسلم كل وسائل التقدم المادي وشروطه. ولو أن المسلم فكر في وسائل التقدم وبواعثه لصار إنسان القرن العشرين الذي يحقق التقدم المدني في كل جوانب المدنية المادية، وفي الوقت نفسه يحفظ كل طاقاته الروحية، وهذا ما أراد العقاد أن يقوله في كل كتاباته الإسلامية وفي مقدمتها كتاب (التفكير فريضة إسلامية).

الكتاب من منشورات المؤتمر الإسلامي، مما يعنى أن جهات رسمية عنيت بطبعه ونشره بين المسلمين، وطبعته دار القلم في طبعته الأولى التي لم تذكر تاريخ طبعه أو رقم إيداعه بدار الكتب، ولم تشر الطبعة إلا أن جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤتمر الإسلامي، كل ما أذكره عن تاريخ طبعه ونشره أنني اقتنيت هذا الكتاب في

(١) حمدي زقزوق: موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، ص ٥٩٧، وزارة الأوقاف سنة ٢٠٠٤م.

بداية عقد الستينات، وكان العقاد قد تجاوز السبعين من عمره.

لم يكتب العقاد مقدمة للكتاب ولم يمهد له، وكتبه في اثني عشر مبحثًا - أطلق عليه في خاتمة الكتاب القصيرة فصول. وهى للمباحث أقرب، لأنها تفتقد الصلة والارتباط فيما بينها في حالات كثيرة، والعقاد يقدم لكل مبحث في سطور قليلة قبل أن يعرض مادة المبحث. وهو يقدم للمبحث الأول: (فريضة التفكير في كتاب الإسلام) = القرآن الكريم يقول: إن من مزايا القرآن الكثيرة، مزية التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف، وهذه المزايا تأتى عرضًا في الكتب المقدسة الأخرى التي لا تهتم بقيمة العقل، بل تذرى به وتحذر منه في بعض الأحيان، لأنها ترى فيه مظنة الزلل.

وفي هذا الكتاب (التفكير فريضة إسلامية) أراد العقاد أن يثبت أن قانون المواءمة الفطري، وثق بين عقيدة المسلم وكل معطيات الحياة. بدءًا بموهبة القدرة على التفكير الصحيح التي بسط القرآن الكريم الكلام فيها، وكذا إعمال العقل في مجالات علوم المنطق والفلسفة، والعلم والفنون الجميلة، حتى المعجزات التي يصدقها القلب ولا يدركها العقل. والأعراف وغيرها.

وفي مبحثه الأول: التفكير فريضة إسلامية:

يبين العقاد أن القرآن الكريم أكثر من ذكر التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف، وهذا ما لم تنتبه إليه كتب الأديان الأخرى التي قد تذرى بمقام العقل لأنه بمنطقها مظنة الزلل، والعقل الذي يأتي ذكره في القرآن في مقام التعظيم يأتي بمعانٍ كثيرة لا بمعنى واحد، كما هو في لغات الحضارة الغربية في كلمة العقل «Mind» التي تأت بمعنى واحد هو الاحتراس والتنبيه إلى الاحتراس من الغفلة، لأن الحضارة الغربية لم تدرك ما أدركه الإسلام من أهمية العقل وخصائصه المتمثلة في الوازع، والإدراك، والتأمل الصادق، والحكم الصحيح

والرشاد، وكل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة، ويورد العقاد الشواهد على ذلك من آيات الذكر الحكيم الموزعة في مناسباتها في أكثر سور القرآن الكريم في سور مكية ومدنية في أكثر من خمسين آية لمادة عقل ومشتقاتها (المعجم المفهرس) غير مواد النُهَى والألباب، وكل ما يدل على العقل وتوجهاته في اللغة، وتعليقات العقاد بعد ذكر الآيات غاية في الإيجاز كأن يقول: «فالقرآن في هذه الآيات يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، الذي يهتم بالذكر والنظر والبصر، والتدبر، والاجتهاد، والذكر والعلم. ولا يذكر العقل عرضًا مقتضبًا، بل يذكره مقصودًا مفصلًا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان الأخرى.

إن العقاد لم يقف فهمه لخصائص العقل عند حد، فقد ركز العقاد على العقل الذي يقوم به الإدراك والفهم والوعي. وبذلك يجد المسلم الوسيلة الحسنة إلى الإيمان الصحيح وما يتبعه من واجبات تترتب على هذا الإيمان بما يصلح الدنيا والدين، وبكل ما يناط بالإنسان الذي هو مركز الكون، وهو يفكر في إنشاء علاقات إيجابية بناءة مع كل ما يحيط به من مخلوقات.

ولقد اهتم العقاد في هذا المبحث (الفصل) بالغايات أكثر من اهتمامه بالبواعث والوسائل، وانتهى إلى أن يقرر بأن القرآن الكريم لم ينوه بالعقل على اختلاف خصائصه وتنوع مقاصده من قبيل التكرار المعاد، بل لأن جوهر الدين الإسلامي يستلزم أن يكون للفرد حرية تامة، وإرادة قوية، وهو يسعى إلى عمله، وجعل ضمن هذه الحرية وهذه الإرادة أن يتولى الإنسان هداية نفسه بفهمه وعقله. فلا يبطل فيه عمل العقل أن الله بكل شيء محيط، وأن خلق الله للعقل، لا يسلب الإنسان القدرة على التفكير، والحرية فيه، ولا يسلبه تبعة الضلال أو التقصير، وبذلك يتناسق جوهر الإسلام ووصاياه، ويحاسب الإنسان بعمله، كما يهديه إليه عقله».

المبحث الثاني: الموانع والأعذار:

ويقصد العقاد بالموانع والأعذار، ما يعطل العمل العقلي، وهى موانع عديدة يختصرها في: عبادة الأسلاف، والإتباع الأعمى لهم، أو الاقتداء بأصحاب السلطة الكهنوتية، ويرى أن الإنسان العاقل قادر على إزالة هذه العوائق إذا حَكَّم عقله، وجعله مرجعه، لأن الإسلام يفرض على الإنسان العاقل أن يقاوم بعقله هذه الموانع بأن يستمد من عقله التفكير السديد والحجة القوية التي تعينه على مقاومتها، فواجب العقل أن يتمسك بالحق، حيث تدعو الحاجة إلى هذا الحق، ولقد بين القرآن الكريم خطورة إتباع الأسلاف، والكهان، والسلطان الجائر، وبين الفساد الناتج عن إتباعهم.

ويوازن العقاد في هذا المبحث بين خطورة إتباع الأسلاف والكهان على العقل من جهة وخطورة إتباع الحاكم المستبد من جهة أخرى. فيرى أن هذا الإتباع الأخير أقل خطورة، «لأن الحاكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه ولا يستهويه من باطنه، كما يستهويه حب الأسلاف ورؤساء الدين، ولأن الاستبداد قهر للعقل بغير إرادته» بعكس إتباع العقل للأسلاف والكهان فهما قهر للعقل بإرادته.

ولكن العقاد – مع ذلك – يؤكد على أن الدين الإسلامي يدعو إلى بر الوالدين بغير ضلال، مع الأخذ بنصح أهل الذكر من الصادقين، كما يحض على طاعة ولاة الأمور فيما لا معصية فيه للخالق. على ألا يكون ذلك على مستوى كل فرد فحسب، بل على مستوى كل الأمة، لأن كل ما يكلف به كل فرد، تكلف به الأمة، فالكل متكافلون متضامنون بتحكيم العقل، سواء صدر الفعل من الفرد، أم من المجتمع.

وصفوة القول في هذا المبحث: «أن الإسلام لا يعذر العقل الذي ينزل عن حق الإنسان رهبة للقوة، أو استسلاما للخديعة، ولا حدود لذلك إلا حدود الطاقة البشرية».

المبحث الثالث: المنطق:

مع أن العقاد وضع لهذا المبحث عنوان «المنطق» إلا أن الكلام فيه دار حول المنطق والجدل. وذكر أن منشأهما يوناني، وأن فلاسفة اليونان أكبروا المنطق وكان يحزنهم أن يقال إن الجدل يوازى المنطق في رفعته، ذلك لأن المنطق بحث عن الحقيقة، وأن الجدل بحث عن المصلحة. عند كل طلابهما. وذكر العقاد أن الجدل كان من صناعة اليهود الذين غالوا فيه حتى كاد أن يصير حرفة عندهم. وعند فرقة الفريسيين منهم على وجه الخصوص، وهم يتحاورون مع السيد المسيح. ثم اشتهر الجدل بين البيزنطيين فيما عرف بالجدل البيزنطي. ولا يزال اليهود عليه في ثلاثة وجوه: إغراء الناس بالقشور دون الجواهر من حقائق الأمور، وإثارة البغضاء بين الأمم، وإشاعة الخلاف في الآراء والأفكار بين الجماعات.

ويذكر العقاد أن آفات الجدل وعدم الفهم في المنطق الصحيح دخلت بلاد المسلمين على أيدي أناس جهلوا أصول العربية، وعجزوا عن فهم معاني القرآن الكريم، فكان ذلك سببًا في الخلط والغلط.

ولذلك طلب أهل الحيطة من المسلمين ترك الاشتغال بالجدل وكان على رأسهم الإمام الأوزاعي. ولكن العقاد لم يوافقهم بل اتبع رأى الإمام الغزالي في موقفه من المنطق، فقد كان يرى أن العالم الحق هو «غير المقلد المحيط بعلم النظر الذي يحسن إيراد البرهان وإجراء القياس»، وكان الإمام الغزالي يرى أن أكثر المنطق صواب، وإنما ينشأ خطأ المناطقة في التطبيق، ويستشهد بشاهد مطول جدًا في ثلاث صفحات من كلام الغزالي ويعلق عليها بعبارة موجزة فيقول: «العقل عند الغزالي، هو العقل في شرعة الإسلام، إذ على العاقل أن ينظر ليبصر لأن من لم يبصر يبقى على العمى والضلال» .

وما كان أغنى العقاد عن هذا الحشو الذي لم يكن يهدف به إلا تطويل متن

الكتاب، ولكنه يضيف إلى الشاهد الطويل جدًا المنقول من الإمام الغزالي، شاهدًا طويلًا آخر عن ابن تيمية، عن المنطق والجدل. وكما وافق العقاد الغزالي في منطقه، وافق ابن تيمية الذي كان يرى «المنطق سليقة في العقل الإنساني» وبين أن تصدى ابن تيمية للمناطقة لم يكن رفضًا للمنطق، ولكن إبطالًا لدعوى المناطقة الذي يضعون الحدود في غير مواضعها، سواء كانوا من المناطقة اليونانيين، أو ممن سلك سبيلهم تقليدًا من الإسلاميين، ومن ثم فقد كان ابن تيمية يؤكد على أن المنطق مقيد بالعقل، وليس العقل مقيدًا بالمنطق. وفي كل الأحوال فقد كان يتهم المناطقة بعدم الثبات على الفكرة والرأي، كما هو حال أهل الإثبات، المتبعون للقرآن والحديث. وهذا رأى حمده العقاد لابن تيمية في مسلكه من تحريم المنطق الذي يقصد به اللغو والجدل على غير جدوى.

في هذا المبحث نقل العقاد عن الغزالي وابن تيمية وغيرهما كلامًا في صفحات مطولة، كادت تشعر قارئ الكتاب بجنوح عن أصل موضوعه، لكنه يذكر في عبارة وجيزة، أنه أراد حقيقة واحدة هي «وجوب التعويل على العقل، أو تفويض الإنسان حق التعويل على عقله. ولكن هل يغفر للعقاد وهو من هو أن يكتب مبحثًا من أطول مباحث الكتاب في ٣٠ صفحة ثم ينهيه بتعليق في أسطر قليلة العدد؟! لا تعدو أن تكون تقريرًا يوصله إلى نتيجة بحثه في المنطق لا تحليلًا للموضوع قبل الوصول إلى الغاية.

المبحث الرابع: الفلسفة:

ويعنى العقاد بالفلسفة، الدراسات الفكرية الفرضية فيما وراء الطبيعة، غير الوضعية التي تقررت بالتجارب المحسوسة، ويرى أن هذا النوع من التفكير لم يشغل أصحاب الحضارات القديمة الكبرى مثل مصر والهند وفارس والصين وبلاد ما بين النهرين، والإمبراطورية الرومانية، وشاعت الفلسفة بين اليونانيين

لأنهم بحثوا في المعرفة من أجل المعرفة، لا من أجل المنفعة وهو ما كان الحال عليه في الحضارات الكبرى.

ومع أن الأوربيين يفتخرون بأن منشأ الفلسفة كان في قارتهم، وإنها مما ميز عقلهم عن العقل الشرقي، فإن العقاد ينبري ليرد عليهم، ويقول لهم إن الأوربيين ليسوا رافعي شأن العقل فقد حجروا على الفلسفة قرونًا طويلة، ونسوها حتى ذَكَّرهم بها ابن رشد. وذكَّرهم بفساد الحكم اليوناني الذي اضطهد الفلاسفة، فحكم على سقراط بالموت، وباع أفلاطون في سوق الرقيق، وأرغم أرسطو على الفرار والنجاة بنفسه من أثينا، بعد أن رماه كاهن وثنى بأنه يلحد بآلهة اليونان. كما قتل فيثاغورس. وهذا ما لم يحدث في ظل الإسلام.

قال العقاد: ولو قيل إن الحلاج والسهروردي المقتول حكم عليهما بالموت، فقد حدث ذلك لأسباب سياسية، لا بسبب الفكر والتفكير، ولقد اشتغل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم بالفلسفة، واشتغل المعتزلة بعلم الكلام، وكان هؤلاء جميعًا في أقصى الطرف الآخر من علماء السنة والحكام، ولم يتعرض لهم أحد بأذى، ذلك لأن حكم الإسلام فيهما، هو حكم الكتاب العزيز والسنة، وليس فيهما كلمة واحدة تحجر على التفكير، ما لم تكن فيه موبقة تفسد حياة المسلمين.

ولقد اشتغل فلاسفة المسلمين بالفلسفة وبلغوا فيها أقصى مدى في رأى العقل، ولكنها لم تخرجهم من حظيرة الدين لأنهم فسروا آراءهم فيما وراء الطبيعة على وجه يرضاه المؤمنون بالله والنبوات. ويمثل العقاد بأمثلة من نقول مطولة للفارابي وابن سينا وابن رشد ليدلل على صحة مسلكهم في الفلسفة، وما ذهبوا إليه فيها.

ويخلص رأى العقاد في هذا المبحث بخلاصة في موقف الإسلام من الفلسفة، وأن الإسلام لا يضيق بها، لأنها تفكير في حقائق الأشياء لأن التفكير من فرائض الإسلام المتواترة، ولعل العقاد أراد بهذه العبارة الموجزة أن يوصل هذا المبحث

بموضوع الكتاب العام (التفكير فريضة إسلامية) دون أن يفكر فيمن يصدقه، وفيمن لا يصدقه!.

المبحث الخامس: العلم:

إذا كان العقاد قد كتب مبحث الفلسفة على استحياء، من وراء ستر، فقد كتب مبحث «العلم» وهو في عنفوان قوته ويقظته، وهو يبين مقاصد الإسلام من العلم وموقفه منه. ويبدأ بتعريف العلم فيقول: «هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق من شيء في هذا الكون ذي حياة، أو غير ذي حياة».

والعقاد مسبوق في هذا المبحث بمبحث «العلم والدين» للدكتور على مصطفى مشرفة من كتاب العلم والحياة الذي أكد فيه أن العلم ليس بضاعة أوربية، فقد سبق العرب الأوربيين في مجالات البحث العلمي التجريبي الاستقرائي، فقد علمهم القرآن الكريم منطق المشاهدة والبرهان الحسي، والتفكير المنظم المبنى على النظر في الموجودات، وفي الظواهر الطبيعية المحيطة بنا ، والتزام مشرفة بإيراد الآيات التي تبصر بالظواهر الطبيعية، والحث على النظر فيها، باستخدام الحواس والعقل معا جعله أهدى سبيلا، وساعده علمه وتدينه.

ولكن العقاد الذي بدأ حديثه – مثلما فعل على مصطفى مشرفة زاد فتفلسف فيما لا يوجب التفلسف. فقال: «فالعلم في الإسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام إذ كان خير عباد الله أن يهتدي الإنسان إلى سر الله في خلقه، وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله» فجاء بمعقولين أحدهما في غير موضعه.

إن ما يجب أن يصحح أن العبادات فروض فرضت فرض عين على كل مسلم

آمن بالإسلام، سواء كان من العلماء أو غير العلماء، وإن كانت مسئولية العلماء أكبر لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. والأخذ بالعلم فرض كفاية على المجتمع، فرض عين على الذين يعلمون، فإن فعلوا نجوا ونجا معهم المسلمون، وإن لم يفعلوا أثموا جميعًا وهلكوا، وفي كل الأحوال لا يقدم فرض كفاية على فرض عين.

لكن العقاد غفر الله له كان له اعتقاد آمن به إيمانًا ذاتيًا هو «أن العبادات ليست بالعقل والحواس فقط ولكنها معرفة بالحقيقة الكونية، تعرف بواسطة الوعي الكوني Cosmis Consectruness وهى ملكة وجدانية أشبه بالإدراك المعرفي الصوفي[١].

إن الإسلام الذي نؤمن به عقيدة وشريعة نأخذه من الكتاب والسنة من أصول وثوابت، وتوجهات وتعاليم واجتهاد غير محدود، وليس بالإدراك المعرفي الصوفي الذي عرفه العقاد وتذوقه.

ثم يعود العقاد فيحذر الآخذين بالعلم من الوقوع في شرك عدم التمييز بين ما هو فرض علمي قد يصير صوابًا، وفرض قد يصير إلى خطأ، هذا من جهة ومن جهة أخرى بين ما هو حقيقة علمية ثابتة، ويستدل على ذلك بنقول مطولة مثل الذي نقله عن هبة الله الشهرستاني في كتاب الهيئة والإسلام ليؤكد أن بعض الفروض العلمية لا تثبت برهانًا يقينيًا يفيد اليقين. كما نقل أيضًا نقولًا عن طنطاوي جوهري الذي خلط التفسير بكل ما عاصره من إنجازات العلوم والصناعات، دون أن تكون له دراية بالعلوم والصناعات فملأ التفسير - بحسن نية - بكل الشناعات التي لا صلة لها بالعلم والتفسير.

---

(١)ارجع إلى كتاب العقاد: الله ص ٢٥.

ولنا تعليق نختم به هذا الفصل. من قول الدكتور مشرفة: «وثمة أشياء تخرج عن دائرة النظريات العلمية، وهى أمور قيمية مثل حب الفضيلة والدفاع عنها، وحب الخير والتعلق به وبغض الشر ومحاربته، والإيمان بالعدل والرحمة، لأن هذه الأمور صادرة عن عقيدة صادقة أساسها الدين، لا الحقائق العلمية.

ومع هذا فإن طلب العلم ذاته مبنى على قيمة روحية هي حب الحق. وعلى علماء الدين ورجال العلم أن يتعاونوا وأن يتناصروا في خدمة الحق، وفي خدمة الفضيلة، فإن في تعاونهم وتناصرهم تتحقق رفاهية البشر وسعادتهم[(١)].

المبحث السادس: الفن الجميل:

يبدأ المبحث باستنكار الأنصاب والتماثيل التي كانت تقام لتعبد، فهي ليست فنا جميلا، لأن الفن الجميل يقاس بنظرة الدين إلى الحياة.

والإسلام قد انفرد من بين الأديان بقبول نعمة الحياة وشكرها. والإسلام يطلب الجمال والزينة. فضلا عن أنه لم يرد في القرآن الكريم نهيًا عن عمل من أعمال الفن الجميل. وينقل العقاد نصوصًا مطولة عن الشيخ عبد العزيز جاويش وعن الشيخ محمد عبده ليدلل على أن الصور والتماثيل ليست محرمة، ولو كانت لمجرد الزينة واللهو المباح.

ويروى أن فن السماع غير محرم إلا إذا كان ممتزجًا بالخلاعة مثيرًا للشهوات وينطبق الشيء نفسه على فن الشعر، من غير الغاوين من الشعراء.

ويقاس على الفنون المتقدم ذكرها، ما استحدث من الفنون في العصر الحديث مثل فن التمثيل المسرحي السينمائي - لكن العقاد كان يعلم جيدًا أن الممثلات في الغالب لا يسترن من الجسد إلا أقله، فماذا يقول في ذلك - وهو يعلم أن من القواعد الشرعية الأصولية أن للوسائل أحكام الغايات والمقاصد والأصول

(١) فصل الدين والحياة، ص ٦٧ - ٦٨، من كتاب مشرفة: العلم والحياة.

الشرعية لا تقبل أن يظهر من جسد المرأة إلا الوجه والكفان. يقول العقاد: إن الدين الذي يعلم من يدين به أن يحب الحياة، وأن يحتكم إلى فكره فلا خوف منه على هذا الفن، أو على سواه من فنون الحياة والجمال.

ومع أن العقاد حاول تأكيد صحة أقاويله في هذا المبحث. إلا أنه كان واهن الحجة الرأي غير مقنع.

المبحث السابع: المعجزة:

يرى العلماء الماديون أن الفلك يدور دورانًا ذاتيًا، ومن هذا الدوران الذاتي يتولد نظام حركي وتنشأ في هذا النظام حياة. ولقد أوقعهم ذلك في خطأ الاعتقاد بأن الكون لا يحركه إله، إذ كان الفرض السائد في القرن التاسع عشر عدم فناء المادة، ولكن في القرن العشرين ثبت عدم صحة هذا الفرض، وثبت أن أجزاء المادة ذوات خاصية موجبة شأنها في ذلك شأن الضوء، فالجواهر الصغيرة التي تتألف منها المادة ليست بالشيء الذي يملأ الحيز الذي يشغله، بل هي أشبه شيء بحركة الأمواج على سطح البحار وعلى ذلك قال مشرفة: والقرآن يأمرنا بالنظر في الظواهر الطبيعية المحيطة بنا، ويحضنا على استخدام العقل والحواس لبحثها ومعرفة خصائصها. قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] فالمعجزة في كون الله سخَّر الكون وحرَّكه بناموس خاص، وعلى الناس أن يستخدموا العقل والحواس ليفسروا حركة الظواهر الطبيعية حولهم، في هذا الكون.

والمعجزة في رأى العقاد معجزة الله في خلقه، والقرآن يحض العقل الإنساني على النظر فيها، ولا يقصد بها خوارق العادات التي هي معجزات مقصورة على الأنبياء عليهم السلام. ويريد العقاد أن يقول للمسلم إنه لا وجود للخوارق، والإيمان بعدم وجود الخوارق هو الموصل إلى الإيمان بالغيب، وأنه غير مستحيل عن

طريق العقل، ومن ثم فإن عقل الإنسان مستعد لفهم كل أنواع المعرفة، عدا عالم الغيب لأنه فوق عقل الإنسان، وهو ههنا يلتقي بمشرفة، فالإسلام يضع المعجزة بهذا المفهوم في موضعها من العقيدة، ومن التفكير الذي يفرضه الإسلام باستخدام العقل والحواس لبحثها ومعرفة خصائصها.

ويختم العقاد هذا الفصل بأهمية التوفيق بين الإيمان والعقل، وليس ما فوق العقل مع أنه لا يضاد العقل، وما يعز على العقل أن يدركه من الغيب يدركه بالإيمان.

المبحث الثامن: إمام الأديان :

يبدأ العقاد هذا المبحث بتقرير عجز المنتمين للأديان السابقة على الإسلام، عن ذكر سبب عقلي لتفضليهم دينهم، وتلك فرضية ملازمة لتفكير من لا يعرف، لكن ذلك لا ينطبق على المسلم لأن دينه دين التفكير بعكس الأديان الأخرى، والمسلم يحتكم بتفكيره إلى العقل، لأنه هو مرجعه الأول والوحيد، وبه يوقن أن الإسلام هو أصلح الأديان وخاتمها.

ويستدل العقاد على خطأ العبرانيين في عدم استخدام العقل استخدامًا صحيحًا بأدلة من الكتاب المقدس (التوراة) وذلك على كلامه بأن ذكر الإصحاحات الطوال من أجل أن يستخلص منها منهج الإنسان أمام الأديان التي تنكر ما عداها، وليس من أجل الجدل الديني كما أراد في الوقت نفسه أن يبين منهج الإسلام الذي يعلم المسلم أن يقبل جميع الرسالات السابقة، ولا يرفض منها شيئًا لغير سبب يفقهه ويقيم الحجة عليه ذلك أن الإله الذي يعبده المسلم (أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد) وهو رب العالمين، والنبوة التي يدين بها المسلم هي خاتم النبوات، ونبوة الهداية التي ترشد العقل، والإنسان المسلم في هذه العقيدة مخلوق مكلف ينجو بعمله لا بواسطة أحد، يحمل وزر نفسه، لا وزر غيره.

المبحث التاسع: الاجتهاد في الدين:

ويبدأ بذكر مصادر التشريع الإسلامي - وفي مقدمتها الكتاب والسنة والإجماع. ثم يؤكد على أهمية الاجتهاد في فهم النص، لأن المسلم بعدما تلقى النص وجب عليه التفكير والتدبر والاحتكام إلى العقل والبصيرة فيما لم يرد فيه نص، والتفكير - كما يراه العقاد - أي الاجتهاد أصل من أصول الدين للقادر عليه، أما التقليد فيكون لمن لا يقدر على التفكير العقلي الراجح.

ولكي يؤكد العقاد على حتمية الاجتهاد والتفكير، يقول: التفكير فرض استطاعة «بل هو فريضة منصوص عليها، مطلوبة لذاتها لما يتوقف عليها من فهم الفرائض الأخرى» وأكد على أن الرسول ﷺ كان يجتهد مع أن القرآن كان ينزل عليه ليعلّم أصحابه فضيلة الاجتهاد، وكان عمر بن الخطاب في مقدمة المجتهدين من الصحابة - ثم صار الاجتهاد بابًا واسعًا عند فقهاء المسلمين فرأينا القياس، والاستحسان والمصالح المرسلة، والرأي الصحيح.

لكن العقاد رأى أن السياسة تدخلت فأبطلت الاجتهاد، وكان بعض حكام المسلمين وراء غلق باب الاجتهاد، منذ القرن السابع للهجرة، فران على العالم الإسلامي غاشية الجمود فانقطع الوصل بين الناس والعلم، فعجزوا عن فهم حقيقة الحياة، ومن ثم فقد نبه العقاد للخطورة الناجمة عن ذلك. «لأن العجز عن الاجتهاد، والعجز عن الحياة مقترنان، وأن المسلمين يحتفظون بمكانتهم بين أمم العالم، ما احتفظوا بفريضة التفكير» والاجتهاد.

المبحث العاشر: التصوف:

ويقدم العقاد التصوف في الإسلام، على نظيره في الديانات الأخرى، ويؤصل لمصطلح التصوف في الغرب المسيحي، والشرق الإسلامي، ويخلص إلى أن تصوف الإسلام: صفاء القلب لله، القائم على الحب، لا على الطمع في الثواب أو الخوف من

العقاب - كما كان حال رابعة العدوية، ومحيى الدين بن عربي، ويستدل بقول الأخير شعرًا:

أدين بدين الحب أنَّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ولا يذكر البيتين قبله - وهما مما أنكرهما علماء المسلمين وفقهائهم. يقول فيهما وهو غير معذور:

لقد صار قلبي قابلًا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

والتصوف برأي العقاد نوعان: الأول: نوع العقل والمعرفة. والثاني: نوع القلب والرياضة. ويرى أن خير من يمثل النوع الأول الغزالي الذي لا يضارعه أحد في قوة التفكير، وابن عربي الذي لا يقاربه أحد في التوغل في موضوعات الحكمة الإلهية، وهذا النوع من التصوف هو أقرب أنواعها إلى الإسلام في رأى العقاد

ولكن العقاد ناقض نفسه إذ يقول: «إن الإسلام ينكر مذهب الحلول (الحلاج) كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود وهو عين مذهب ابن عربي الذي أثنى عليه قبل. لأنهما يسقطان التكاليف بسبب تأثير تسرب إليهم من ديانات وثنية، بعكس الإمام الجنيد الذي لم يسقطها.

ومع أن العقاد يرى أن التصوف «ليس بواجب، وليس هو بممنوع» لكنه أراد أن يضيف في كتابه ملكة روحية إلى الملكات العقلية، أو أراد أن يظهر لقارئه أنه فارس كل الميادين «فهوى» .

والعقاد - مع تكلفه وتلفيقه في هذا المبحث، قد خرج بهذا البحث عن موضوع الكتاب: التفكير فريضة إسلامية، وهو أهم ملكات العقل التي تضاد الوجد الصوفي، وهو ما ضل عنه العقاد في هذا المبحث وغوى.

المبحث الحادي عشر: المذاهب الاجتماعية والفكرية:

يقدم لهذا المبحث بمقولة إن الإسلام يقيم قواعد الإصلاح الاجتماعي على أسس قوية، وهو ما تفتقده الأديان الأخرى، والإسلام على غير ذلك فقد تمسك بمسائل الاجتماع والفكر لأنها واقع لا يمكن تجاهل مبادئه وغاياته. وكان هذا التقديم بمثابة مدخل للكلام في أهم المذاهب الاجتماعية المعاصرة وهي: الديمقراطية والاشتراكية - والعالمية - والوجودية. ومذهب التطور. وههنا يقرر العقاد «ما الذي يمنع المسلم أن يعمل للديمقراطية أو الاشتراكية، أو الوحدة العالمية» . وما الذي يمنعه من أن يقبل مذهب التطور، أو الوجودية في صورتها المثلى، والعبارة الأخيرة تبدو عبارة تبريرية، لأنه يرى أن جوهر الإسلام يتضمن هذه المذاهب، وليس هناك تهافت فوق هذا التهافت من مفكر كبير ولو كان العقاد نفسه. أكان العقاد متأثرًا بديمقراطية إنجلترا وفرنسا التي استعبدت شعوب أفريقيا وآسيا. أم ديمقراطية تزعم أنها نهاية التاريخ مثل الديمقراطية الأمريكية التي أبادت شعوبًا في أفريقيا وآسيا. بعد أن أبادت سكان أمريكا الأصليين.

وأي اشتراكية يؤيدها العقاد ويختارها للمسلم أهي الاشتراكية الماركسية أم الاشتراكية الوطنية الألمانية (النازية) أم الناصرية الشمولية.. الخ. وإن ما يعجب منه المرء أن يعترف العقاد بأن دين الإسلام يستوعب كل هذه المذاهب الفكرية والاجتماعية دون أن تستوعبه هذه المذاهب.

إذن فما دام الأمر - كما أقر به العقاد، فلماذا نلجأ إلى هذه المذاهب؟ وعندنا الإسلام؟!

أما الدعوة إلى العالمية، فيزعم أنها دعوة الإيمان بالوحدة العالمية وهى دعوة كان يدعو إليها الفكر الغربي في أوائل القرن العشرين ليثبت بها أركان احتلاله للأوطان. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨]،

وهذا حكم الله فيهم. ألم يعلم أن الله خالق البشر جعل فيهم المدافعة أصلًا من أصول الحياة البشرية. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] هذا مع الإيمان بأن الله تعالى خلق الناس من نفس واحدة هي آدم ومن آدم جعل الله تعالى وشيجة الرحم التي تربط بين البشر، ولكن ليس بمعنى الوحدة العالمية.

أما نظرية التطور (أصل الأنواع) فقد وجهها العقاد إلى غير وجهتها فتطور خلق الإنسان ذُكِر في القرآن ويجب ألا نخرج عليه. أما أن يقول العقاد: «ويكاد مذهب التطور أن ينوب عن المذاهب في التمثيل لاستعداد المسلم للنظر في تلك المذاهب على عمومها فهو كلام غال غير مقبول؛ لأن هذه النظرية كانت مجرد فرضيات لم تثبت صحتها حتى عند الداروينيين أنفسهم.

أما الوجودية التي استقامت فكرتها في الاعتزاز بحق الفرد مع شخصية العقاد نفسه، وما كان يؤمن به متمثلًا في شخصه هو نفسه، ويراه من حق العقل في الإسلام. فقد أودت بأهلها إلى حال فوضى في الحرية.

ويختم العقاد هذا الفصل عن علة يوجب بها ربط الدين بهذه المذاهب - فيما يشبه الخيال الطوباوى، دليل ذلك أن العقاد كان يشترط لقيام هذه المذاهب في عقل المسلم: «أن ترعى هذه المذاهب للدين حرمته في المسائل الباقية، هكذا قال العقاد وكأن الأمر بيده، مع أن المعلوم أن هذه المذاهب لدى دعاتها تنبذ الدين وتتجاهله».

المبحث الثاني عشر: العرف والعادات:

قال العقاد: تسربت عادات وأعراف من شعوب دخلت الإسلام، وأخذ الإسلام منها بما لم يكن له مساس بالعقائد والعبادات الإسلامية، وعمل بها المسلمون، ولكن لما دبَّ الضعف في المسلمين أنكروا هذه العادات والأعراف، ومنها ما أحرزته الشعوب في مجال الصناعات والتقدم العلمي لأن الأخذ بها تسليم

للغالب بالسيادة، ثم امتزج هذا الإحساس بالجمود والخمول، فتحرج المسلمون من محاكاة الغالبين في أسباب القوة.

ولكن المسلمين ريثما تجددت الثقة في نفوسهم - في عصر النهضة - وهي ثقة مستمدة من حصانة دينهم، ثبتوا الأقدام على منهج الإصلاح، وفي مصر كان الخلاف على أشده بين الخديوي وأئمة الإصلاح وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده، الذي أثبت أن المسلم في مرحلة من مراحل حياته كان يتحرج من دون داع، ويخلط بين موروثات الأعراف وسنن العقيدة، مع أنه تعلم من كتابه النهي على الجامدين الذين يستعبدون عقولهم بعادات أسلافهم.

ويخلص العقاد بهذا المبحث - وهو آخر مباحث الكتاب - إلى أنه «ليس من روح الإسلام أن يجمد المؤمن على عادة موروثة، وليس من روحه أن يرفض عادة جديدة إذا كانت صالحة، لأن يعتصم من روح الإسلام بحصانة تعيذه من سحر الغلبة فلا تهوله بروعتها، وتلك مفخرة الإسلام».

خاتمة:

ختم العقاد مباحثه بخاتمة موجزة بين فيها أنه كتب هذه الفصول جوابًا عن تساؤلات بعض الناشئة: هل يتفق الفكر والدين. وهل يستطيع المسلم المعاصر أن يقيم عقيدة الإسلام على أساس من التفكير؟ والجواب: نعم يتفق الفكر والدين بل إن عقل الإنسان يرى في الإسلام الدين الأحق بالإيمان به في هذا العصر. ومن هنا يحق للمسلم أن يعلم أن التفكير الصحيح يوجب الإسلام، وأن الإسلام يوجب التفكير، هذا هو الإسلام: بنية حية تذود عن عقيدتها، فتذود عن كيانها أو تموت دونه».

خلاصة القول:

هل كان عباس محمود العقاد الذي ألف كتاب التفكير فريضة إسلامية في اثني عشر فصلاً (أو مبحثًا) في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط. يروم إعادة هيكلة نظم

الاجتماع Social Re- engineering داخل الحضارة الإسلامية الغاربة فيما يمكن أن يعرف في مجالات التفكير بإعادة تنظيم البنى الفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية. والقيام بعملية تجديد تربوي أخلاقي إحيائي لجماعة المسلمين؟ ربما أراد ذلك لكن وسائل التفكير التي حاول العقاد أن يقنع بها قارئه مستمدة من الغرب. الذي كان العقاد محبًا لحضارته - خاصة في النظم الديمقراطية التي ترفع من شأن الفردية - وكذا النزعة العلمية التي أصلها تشارلز داروين. وكل ما هبت رياحه من الغرب وكل ذلك يؤخذ منه ويرد - كما يؤخذ من كلام العقاد ويرد.

إن هناك مفكرين غربيين ومنظرين لا يخفون انزعاجهم من ديمقراطيتهم التي يريدون أن يفرضوها على العالم بالقوة - كما قال فرانسيس فوكوياما المنظر الأمريكي في كتابه «نهاية التاريخ وخاتم البشر» قال المفكر الألماني مراد هوفمان: «لا نستطيع أبدًا أن نتفق مع ما تنبأ به فرانسيس فوكوياما، بأن نهاية التاريخ تلوح من خلال سيادة الحضارة الغربية، في صورة سيطرة نظام حكمها الديمقراطي الحر، وما يحمله من قيم على العالم كافة.

وكلام مراد هوفمان يفهم منه أن كلام المنظرين في الغرب، يُعنى به ما يجب أن يفهمه الآخرون عن ظاهرة الغرب، لأن الغربيين يفهمون ما يبطنون لأنفسهم ولغيرهم.

لقد عاش العقاد أكثر سنين الغرب دموية في حربين عالميتين - وكانت ثانيتهما بين معسكرين الأول ديمقراطي / اشتراكي: إنجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا، ضد المعسكر الثاني الذي سمى نفسه الاشتراكي القومي، وسماه خصومه بالنازي، وكان العقاد مدافعًا بقلمه عن المعسكر الأول لأن فيه إنجلترا وفرنسا مركزا الفكر الديمقراطي الليبرالي، بمعتقده - ضد النازي والنازية، هذا مع العلم بأنه كان

ضمن هذا المعسكر النازي منظره هيدجر أشهر وجوديّ أوربا إذ كان منظرًا للتطهير العرقي لهتلر في سياسة قتل البشر. واشتهر بكتابه: الوجود والزمان.

وفي هذه الحرب نفسها، استخدمت الولايات المتحدة التي انتقلت إليها راية الديمقراطية الغربية القنابل النووية القادرة على إبادة البشر وتدمير الأخضر واليابس.

ولقد أقامت كل من الدول الديمقراطية الاشتراكية معسكرات الإبادة والتطهير العرقي ولم تمنعهم الديمقراطية، أو الاشتراكية الماركسية أو الاشتراكية القومية من إبادة البشر.

لقد قال العقاد في كتاب (التفكير فريضة إسلامية) أن الإسلام يستوعب هذه المذاهب ولا تستوعبه هذه المذاهب. إذًا فلماذا لا نتمسك بالإسلام ونبرز جواهره ودوره كما حاول الإمام الغزالي في كتابه «جواهر القرآن ودرره»

ومن جهة أخرى كان العقاد في مواضع كثيرة يعوزه الدليل فيلجأ إلى التلفيق، أو نقل شواهد مطولة في صفحات عديدة، وعلى سبيل المثال فهو في مبحث العلم في (ست عشرة صفحة) كان منهم عشر صفحات كاملة منقولة من كتاب هبة الله الشهرستاني من كتاب: الهيئة والإسلام وعدد صفحات مثلها من تفسير طنطاوي جوهري ولم يقتصر ذلك على هذا الفصل فقط، فقد تكرر في الفصول الأخرى. وكان الذي اخترناه على سبيل المثال لا الحصر، وكان في إمكان العقاد أن ينقل شواهد فقط ثم يحلل أفكاره والأفكار التي يستشهد بها، ولكن العقاد – وإن أمسك بالأوابد عندما ينتهي إلى الحكم، أو يمسك بعض الأفكار كان قصير النفس، فكان يلجأ اضطرارًا اللنقل المطول الذي يبدو حشوًا في أغلب الأحيان.

ولكن مع ذلك – فقد وضع العقاد بين أيدينا وتحت أعيننا أفكارًا مهمة قابلة للتفكير والبحث والإضافة في داخل العقل الإنساني، خاصة عقل الإنسان المسلم.